الغزل فى شعر أبى شادى

بقلم الأديب المجدد الاستاذ على محمد البحراوى

(١)

قصة قلب !

عاصفة يبعثها القدر العاتى فتفرق بين بائعين تؤلف بين قلبيهما عاطفة مشتركة !
ويد عابثة تمتد فتحرم القلب المنى مكمله وتبصره وتهده وجداً !
وقصتنا اليوم هى قصة هذا القلب الشهيد !

* * *

درجا معاً إثنين . . وشبا خلين . . وعاشا حبين .

ونضج حبهما مبكراً . وكانا لوعة الصد . ونعما بلذة الألفة ومازالا صغيرين ، وكانت تحوط أحدهما (الذى نروى قصته) بيئة صحفية أدبية جعلته يشدو لصاحبة القلب الآخر :

نشأت وقلبى يصوغ لك - وإنى وربك على حبك

ولم يكن يتجاوز إذ ذاك الثانية عشرة من عمره ، ولا يستغرب إجادة التعبير فى هذه السن امرؤ يعترف بأثر الوراثة فى ميول الفتى وطباعه ، وتبكيره الغزل هذا يذكرنا بنظيره عند الشاعر الانجليزى العظيم اللورد بيرون .

وشاءت الظروف القاسية أن يبرح الشاب وطنه ويترك أهله ، ويغادر حبه . . قلبه . . سعادته . . ويسافر إلى انجلترا الباردة العبوس . . ولكنها لم تطفىء لظى فؤاده بل زادتها سعيراً ! . .

والدهر يأبى الا أن يفجع الشاب فى غرامه . . فى هنائه . . بل فى حياته

ماذا ؟ ! هل تقضى الأمر ! وهل يحرم الى الأبد حبيبته . . أمله ومناه !

تنكس صحته . ويتنابه سقام قاتل وهو فى وحدته ثم فى غربته ، وهو بعد ذلك يقاسى لوعة غرامه فلم يفتر تكتمه فيه بعد !

تلك حال تتقطر لها قلوب سامعيها ، لما فيها من ... ق ومن سائر ما ...

إلهى السلوة فى الشعر .. فأقبل عليه بنهم نجواد ، ويشكو له من حبه .. من أمله .. من حياته .. من العالم أجمع .. بل منه هو أيضاً !

هذا مجمل قصة القلب الحبين الحصير ! ولعلها هى السبب فى خروج أبى شادى شاعر التجديد مبكراً الى حلبة الشعراء ، وستتبع آثارها فى نفسه وفى شعره معاً ، وسنجدها مهمة ممتعة ولكنها لن تخلو فى بعض الأحيان من إحساس أسى ولوعة وإشفاق على صاحب قصة القلب الكسير !

(٢)

أطوار الغزل

بدأت هذه القصة وقادنا فى الثانية عشرة ، وهو وإن كان يناهز الآن السابعة والثلاثين إلا أننا مضطرون إلى تقسيم هذه المدة الطويلة إلى أطوار ثلاثة :

(١) شعر الصبا — وهو الذى يصف نشأة الحب ، وأيامه الأولى التى نعم فيها الشاعر ، وحياة الشاعر قبل سفره الى انجلترا بعد أن وقع فى غرامه .

(٢) شعر الشباب الأول — وهو الذى يصف لجيعة الشاعر فى غرامه ، وغربته وآلامه ، ومرضه ، وشكوى الحياة والدهر والنفس والحب .

(٣) شعر الشباب الثانى (وهو ماتسميه فيما شعر الكهولة) — وهو الذى تسامى فيه أكثر غرام الشاعر الى شعر وصفى وشعر فلسفى وشعر تهذيبى وشعر انسانى وشعر تقصصى وشعر تمثيلى ، ولعل هذه الكهولة أغنى أطوار شعره وأعدوها فالرجولة المعنوية فيها مكتملة ، وكم نريد أن تكون كهولته فى الشعر طويلة بقدر ماهى ممتعة .

ولكننا نعمد الى هذا التقسيم مع ابى شادى بالنسبة للغزل فقط ، وهو تقسيم لايتعدى الحدود الفنية وليس للتاريخ فيه أى حساب ، فقد نجد فى شعر الصبا بعض سمات الكهولة فنعدها منها ، وقد نعثر فى شعر كهولته على ذكرى لغرام الصبا ووصف لتميمه فلانحسب هذا إلا من شعر الصبا .

وسندرس معاً هذه الاطوار الثلاثة ، وستأسف معى بلا شك على ضياع جانب

كبير من شعر أبي شادى الغزلى بين ماتركه فى مصر من مخطوط أثناء اغترابه الطويل بانجلترا ، وفيما اجتمع لديه فى سنى غربته وصوره مع أوراقه السابقة ومنظوماته الوطنية بحمرك الاسكندرية فى ديسمبر سنة ١٩٢٢م ثم لم يستطع الحصول عليه فيما بعد .

وستمر معى ولا شك عند ماتعلم بالجهود الذي بذله نجوه ومريدوه — وفى طليعتهم الاستاذ الجداوى — فى جمع غزله القديم (شعر الصبا) من متفرق الصحف ومن أوراق الاصدقاء والزملاء مما هو منشور فى ديوان الغزلي (« زينب » أو تفحلت من شعر الغناء) وفى ديوان (« أنين ورنين » أو صور من شعر الشباب) . وفى هذين سندرس من غزل أبي شادى شعر الصبا وشعر الشباب ، أما شعر الكهولة الغزلية فستكون دراستنا له فى ديوانه الجديد (الشفق الباكى) وفى الجزء الاول من ديوانه المخطوط (وحى العام)) الذى اعتزم أن يصدر أجزاءه متلاحقة فى نهاية كل عام وقد ظهرت نماذج شتى منه فى طائفة من كبريات المجلات والصحف وفى طليعتها العصور .

(٣)

غزل الصبا

امتاز شعر أبي شادى فى صباه برقة العبارة وحرارة العاطفة وموسيقية البيان . وهو فى صميمه شعر غنائى أيضا ، ولعمرى انها لحدود يجب أن لايتعداها الشعر الغزلى المطبوع . أنظر اليه يشرح قصة غرامه :

أخذت تلقتنى الغرام بنظرة ... عنيت كأن أسيرها القلب الخلى !

وقد خشى نظرتها وطلب الامان :

فجعلت أسألها الامان وأتقى ... من لحظها ما أتقى المؤمل !

ثم أخذته الفتنة والحسن :

مابين فتنتها وبأس حسنها ... أنا قسمة المعزز والمذلل

فجعل يتشكى :

يا (زين) مافى النفس الاحرقة ... تبقى كسابقة الشعور الاول

ويذكر عندها هواه واخلاصه فيه :

أحببتك الحب الصحيح وانتى ... بلغى على الايفاء والشرف العلى

وهو مع ذلك لم يخل شعره غزلة يشوقها ويتطلع اليها

يتطلع الغرب الشروق تقبلة ، ولو انه نال المنى لم يعجل !

وهو الشعر الاخير ، مقاطعة تسدها الشاعر ليخضع بها (زينه) لخطيبها القديم ، وهو لا شك لا يحبه ، ولكن الفتى صبرها بالخلاص ، ولكنه لا يذكر ذلك الآن حتى تسمح له بالاول قول صحت ؟ لا ، ولكنه يفهم به عدوه ليشغل على ثغرها الذي قطالبه بالورع والتقى لم حبه فيجيب :

صبراً على (التقوى) وان ذهب الهدى ... بجلالة الماضي وأنس المقبل

قصراً وان جنى على نفسه بذلك !

وقد تسلكه أحيانا لواعج الامر ، ويظن أن ترفع خطيبها ما يذهب به فيخاطب الها :

هاتي لي العود وغني ، واسقني نحوه وأني

نطرحي الاحزان عني ، لأؤدي صلواتي !

ولا أعرف أنا كنه هذه الصلوات الاخيرة ، وأحسبها فروضاً يؤديها للحب والجمال !

ولقد ، قالت الحسناء سمعاً ، وغنته ، من سلاف الحب نوعا ، وأبدعت حتى خيل إليه أن قد ، رنحت منه الخزانا ! ، ثم هتفت :

ترسل الصوت شجياً ، يملأ القلب دوبا

ليته عاش خليصاً ، ليته الباقي لآتا !

ولكن لم يصدق حدسه ، ولم يجد نشوة طمع فيها ، فلقد أشجته أشعار يدها حتى لفت عن عذابه :

ثم كلمت عن عذابي ، بأغاريد الشباب

وتشاغلت عن دعابي ، باللحاظ الفاتنات

وانتهى فعل الغناء ، ولكن اللحاظ الفاتنات ، بدأت تنفث سحرها حتى نسي أساه وشجنه !

ومر اليوم فعاوده الشجن فأوده :

ايه يا يوم انقضي ، في نعيم كيف ترضى

لفؤادي العود أرضا ، كيف ترضى لي عذابي ؟!

وعاد الى (زينه) ، الى منحة أساه ، الى أمله ، وعاد يطلب مناها ، ويشتهيها :

إيه يا (زيت) شبابى ٭ يامنى قلبى المعذاب
يامعذابى يا شرابى ٭ هاتى من كأسك هاتى !

ولكن أى راح يطلب ؟ إنها رحيق ثغرها الضاحى :

هاتى هاتى الراح من ثغرك الضاحى ٭ وخصى بها الأزهار أجمل أقداح

وقف نا هنا برهة . . نستمتع فيما بهذا المعنى البديع ، ونلتم معه الزهرة تقدمها اليه الحبيبة مشفوعة بقبلة من راح ثغرها الضاحى . . أو نستنشق عبيرها على الاقل !

ولا تكتفى باللثم يانفح زهرة ٭ لقلبى فما تغنى السلاف عن الصاح

سقاً ! . . الصاح قبل الشراب . . ولكن قبلتها فى الزهرة هى الصاح والشراب !

ولا تستعيضى عن سناك بخمرة ٭ فما يسكر الأرواح مسكر أشباح

ماذا ؟ لا . . إنك تتحايل على وصالها بالخديعة مرة أخرى ! فرحيقها يسكر الأرواح والأشباح معاً ! . . ولكن لعل روحك أنت متعطشة أرهفها النجى !

ويترك الشاعر مكلوما حبه وأمله . . ويبرح الوطن والديار . . ولكن ذكر الحب لم يبرحه فما زال القلب خفوقا ! وما زال هو يطمئن إلى خفوقه .

(زينب) ماأحلى الخفوق لمنى ٭ لا يرحم القلب لدى قربك !

ثم يذكر بعد الشقة ، ويخاف أن يؤثر ذلك فى حبها له ، فيتملكه الجزع ويناجيها فى حرارة :

(زينب) ياشمسى ويابهجتى ٭ كونى كعهد الشمس فى حبك

ويذكرها بأنه المخلص الوفى لها حياً وميتا :

إن عشت لم تنسخ صلاتى النوى ٭ أو مت ناجانى هوى قربك

ولعمرى إن فى الشطر الأخير معنى يعجز عن متابعة الشاعر فيه خلى لم يعشق ! ومثل ذلك نراه فى تحيته لها حينما وافاه كتابها فأحياه وحياه ، وكان ذلك حوالى سنة ١٩١٠ م . فى إحدى فترات افتراقهما قبل فراقهما النهائى :

كتابك العذب ياروحى وريحانى ٭ وفى لقياه غرامى حين حياني

وتفارقه همومه عند مايرى همومها طائفة ، وينطلق من عقاله يهون عليها الامر ويذكر لها حبه ووفاءه :

وحلت عنك رحيل الطيب عن زمن ٥ يودى به البعد لولا حسك الذاكى

وتأمل إبداعه فى بيته التالى :

فكنت كالزهر رأد والنسيم رضى ٥ وكنت كالشمس فى حسن وإحسان

ثم يذكرها بفعل اقتضاها ومعانيها فى نفسه :

فى كل لفظ معانى الأنس ضاحكة ٥ وكل معنى دليل الصبر للعانى

نعم كان يحوى دلائل الصبر . . . ولكن هل أثر هو بها ؟ قد نستشف الجواب فى البيت التالى :

لثمته فى نفى أضعاف مالثمت ٥ حروفه من فؤادى (زين) إيمانى

ثم يطمئنها أخيراً ويطلب اليها أن تدع (خوف الفراق) وهو فى الحقيقة غير مطمئن :

الله يرعاك فى يامهجتى قدعى ٥ خوف الفراق وكونى عند حسبانى

ولكنه أخطأ فى حسبانه ، وصدقت هى فى خشية القدر !

ولعل من الانسب أن نختم دراستنا لغزل الصبا فى شعر أبى شادى بهذه القطعة (الكروان الرسول) ، وإن كانت مما يصح أن يعتبر من شعر الشباب ، فقد انقطعت عنه أخبار حبه وخشى أن يكون قد جد حادث فطلب إلى (الكروان) أن يقوم بمهمة (الرسول) :

بالله ياكروان ٥ تكفيك أشجانى

بلغ حبيبى الآن ٥ أنى له الثانى !

ثم يذكر حاله وجزعه على حبه فيقول :

لم يبق غير الروح ٥ فى قلبى المجروح

من لى سوى أبوح ٥ مهما تناسانى ؟

وإنه لأسى عميق يملك الفؤاد . . . وإنى لا تخيل على ضباب هذا الأسى صورة الشاعر وقد جلس يتلقى وحى الأسى واللوعة . ينظر إلى القرطاس بعين دامعة ، ويعد يداً مرتعشة تخط هذه القطعة :

سائل أعز الناس ٥ من شاقه غيرى

أو نالة الوسواس ٥ والشك فى أمرى ؟

وكيف تريد أن تكون دراستنا لمثل هذا ؟ ! . . قل لي كيف . . فإني لا أجد غير التأمل ، والتأمل في مثل هذا يورث شجناً قد تقطر له من العين دمعة حسرة :

قد مرت الأعوام بي تذكرني بآلامي
والقلب فيه ضرام ، تذكي بأحلامي

دراسة الشعر شرح وتحليل وتأمل . . فهل يحتاج مثل هذا إلى شرح ؟ لا أظن ! إذن فلنتأمل معاً :

ولوعتي بالعبقر ، تذيب حتى الجماد
فكل عيشي فساد ، لولا أهوى الباقي

أيام تمر ، وآلام مبرحة يحجبها إلا عن نفسه وشعره . وقلب لا يجد لغرامه أوار ، تختم بها جميعاً شعر صباه لندرس معاً شعر الشباب . ولكننا لن نكون أقل أسى وحسرة ، ولا أخف لوعة وشجناً . . . فلنعرف كل هذا قبل أن نلتقط ناره !

(٤)

غزل الشباب

قلنا إن غزل الشباب في شعر أبي شادي هو الذي يصف فيه عنفوان غرامه ، ويرثي أمله وألمه ، وتعثره ولوعته ، وظلمنا لا نعدو الصواب إذا قلنا إن شعر شبابه عامة هو ثورة حزينة على الحب والشعر والنفس والحياة . . ولعلك تعرف شيئاً من هذا إن قرأت قصيدة (شعر شبابي) التي مطلعها :

قد جمعت الوجد والمنى الأنين ، وتلبست على قلبي الزمن

وقد يكون أبلغ وصف لما تضمنه شعر شبابه قوله :

من رجاء وبكاء وجوى ، ورثاء ووفاء لا يبين

وعاود أبو شادي بعد استعراض شبابه ووصف ما تضمنه شعره إلى الثورة الحزينة مرة ثانية ، فيقول في حسرة وأسى :

آه يا شعر شباب آفل ، لم يعش منك سوى سلوى الحزين

ويجلو لك منشأ هذه الثورة ومبدأ هذا الحزن الساخط في قصيدته (لفتاة الغرب التي يقول منها :

ألا في سبيل الحب والأمل الغالي ... عذابي عذاب النفي في الجيل الخالي !

ويذكر غربته ووحشة فيافي السمع مثله :

شريداً وحيداً (كالطليحة) موئلي ... أكفكف دمعي في أشعة آصال

وينظر شبابه النضر يذوب شجناً وأسى فيندب عمره :

وأندب عمري ، قد تولى أغره ... ولم يبق غير الذكر والمثل العالي

ويتملكه حزن عميق يخيل اليه أنه (من فرط شقوته) خلق (ليعطي الدهر حكمة الاجيال) :

كأني لما لاقيت من فرط شقوتي ... خلقت لاعطي الدهر حكمة أجيال !

فهل نظر امرؤ الى العالم بأسود من هذا المنظار !

ولكنك ستلتمس له العذر معي متى وقفت على قوله :

جزيت على طهري بشر مهجتي ... وأوذيت من أجل الوفاء ومن أني !

أهكذا يجزى على طهره ويؤذى لوفائه . . . ومن نقل ... من ذويه !

إنها حتى تسيغ له السخط ، على الدين والدنيا ، كما يقول :

فبت صبياً في رجولة ناقم ... على الدين والدنيا ، على الشرف البالي

ثم تملكه وحشة يرى فيها كل ما يحوطه ، ويخيل إليه أن الدنيا كلها تنظر اليه شزرا وأن ليس من عاطف عليه سوى البحر !

يحن الى إلى البحر يخفق ماؤه ... ويحملني رفقاً الى الحرم العالي

ولم لا يحن اليه سوى هذا اليم الثائر الصاخب . ألا يقاسمه صخبه وثورته قد يكون . ولكن الشاعر لا يقنع منه بهذا فهو يلح عليه ليحمله . إلى أين . . الى انجلترا . الى وطن الحياة : حياة الفنون والعلوم والآداب والثقافة العليا وأخيال المعزى :

إلى الوطن الحي الموات فلم يصب ... شغافي من داء يقضي فتسال

ثم تأخذه الذكريات ووقاد الحب فيقول في حرارة .

أأحرم من شمسي بحسب هاتفاً ٭ وحولي ضباب العيش لا الأمل الحالي !

لا . . . ومن يحسبك هاتفاً في مهجرك ، ناشداً عن حبك وأهلك ! ثم تأخذه عصبة على الذين أبعدوه عن أهله فيخاطبهم قائلا : ، فياعصبة شاءت فأنى وأسرفت ، ، ويتوعدهم بأن ، ستحيا على رغم الدسائس أفضالي ، ويعزي نفسه ويعللها بعذب الأماني :

ويذكرني قومي ويعرفني الهوى ٭ فتنقم لي العليا والزمن التالي

أما قومك فتذكروك . وأما الهوى فلا يعرفك إلا متكوما فيه . . ولقد نقم لك الزمن التالي فهل أطفأ ذلك شيئاً من سعير فؤادك ... لا أظن !

ثم يستأنف وعيده لأولئك الجانين على غرامه ونعيمه :

عرفتم لصوص الحب والحب لم يكن ٭ لصوصاً . وكم تشجيه نكبة أمثالي !

أي نعم . وكم تشجيه نكبة أمثالك !

ويعود إلى ذكر هواه ووفائه . وكيف لم يثنه منهما سوء :

سلوت فؤادي في غرامك طائعاً ٭ وما كان عبداً في غرامك بالسالي !

نعم لم يتطرق السلو إلى غرامه ، وما كان ليتطرق مادام القلب خفاقاً وما زال يحيا يحيا ويحيى فيها أصدق عاشق :

سأحيا وأفنى فيك أصدق عاشق ٭ أصاب به الزلزال قدود أبطال !

وقد يفرغ من عنفوة الحزن والكآبة يستعرض حاله فيرى أن الهم لا يدفع قضاء وأن ، الفوز للصبر ، فيقول :

ثق بفؤادي ولا تصدعك نائبة ٭ فالفوز للصبر لا للهم والزلل

ولكنه يعود فيذكر حاله الآن وما يعاوده من حسرة وأسى بعد أن ، تغنى شعره الطرباء بذكرها :

ثق بأوفى تغنى شعره طرباً ٭ بذكرها ، فغدا يبكي ولم يزل !

وهو بعد أن سحت مآقيه في سيل هواه ماسحت يخاطب قلبه :

أنفقت فيك دموعنا كم يرزت بها ٭ هل بعد عهد الهوى تغنى له أجلي !

لكن القلب مع ذلك ثائر لا يهدأ :

[illegible]

ويحس النظر الثاني من هذا البيت معي دبيبا . فالشاعر لا يريد أن يشبب بحبيبته الثاني الى خجل . ولكنه يحب دلبر الحب في لون السماء !

وهي كالطير مذبوحة وفي نفسي . أو كالضيع هما شوقا الى قبل !

وهو تصوير بارع لاضطرابات القلب الحزين ، وقد نال الى حرم ضيه حلا لغيره حبا هو أولى به ، وقد يرى الشاعر يوما حائلا تأخذه من بهجة الاذكرى حسرة مؤلمة ذاهب ، ولا يبرق في نفسه إلا لاعجة أسى . أنظر إلى قوله يخاطب (شمس نسان) :

يا شمس نيسان في برج لها ثان . مني الوصال وفي عرشك الساني

مني نعم أرضك مرتعة . حسي ونفسي وإلهامي وسلطاني !

الى أن يقول يوجه الخطاب الى شمس نيسان ، ويعني محبوبته التي حرمته ضياءها وإلهام حياته :

ردي حنانك ! إني لم أصر بشرا . من الحياة سوى مزهرك الجاني !

ثم يطلب إليها (شمس نيسان) أن تسأله (وفي سؤالها إياه السحر والوحي لهم) ان يرتل شيئاً من شعره . على أنغامه ترق من عواطفها وتشعرها بعبادته إياها :

سليه يعزف بأنغام يرتلها . شعري كأن بها إعجاز قرآن !

يطول به الحزن ، ويضنيه الشجن فيحار الى مهجته في الظلام يحاول أن يريحها ولكنها ترفض :

خلوت إلى مهجتي في الظلام . أحدث من حظها الغابر

فقالت : حرام ، حرام ، حرام ! . فما الأنس في البعد عن مؤنسي

وتردف تأكيداً :

وهل طاب للعاشقين المنام . اذا احتجبت (زينة) المجلس !

لا . !

فما لله دعني لدمعي الحزين
فقد شاء ربي لقلبي الأنين
وكن راحما ، ان لومي عذاب

تريد أن يتركها فريسة السجن فقد كتب لمثلها الأنين ، وتسأله أن يكون رحيما وينصر اللوم فقى ذلك ما عذاب ! ومن هى ؟ . . . . مهجته !

أجبنى : ألم يتقطع نياط قلبك . . . .

وأسكرنى حبها نائماً ، فلم أستفق قبل شمس الصباح
أضغاث أحلام !

فقلت : أيا مهجتى ظالماً ، أمانيه من خافقا ما يباح
ثم ماذا ؟

فما العيش الا الذى دائما ، ومالموت الا الرضى بالكفاح
فهل يرضى بالقضاء

فهل اكتفى من غرامى بدين
هو الوجد فى باقيات السنين
وشعر الفناء لقلبى المذاب

لا . . ولكنك خاضع لصروف الدهر ، وليس فى وسعك الا التسليم !

وتمر عليه فترة هو ل يعتقد فيها ان الذنب فى الهجر ذنب محبوبته لا ذنب الأقدار ولا ذنب من عاشوه فيذوب حسرة وتألماً ويقول فى هذا (الحبيب الجانى) الحى الميت :

بالروح أم بعذاب آمال الصبا ، أبكى الحنان الجم فى ذكراك
بهما معاً !..

تحيين أشجانا سأحيها غدا ، وتقطعين مسامر النساك !

الى أن يقول :

أخشى عليك من الشذوذ لحبها ، وأرى على بعد الخيال هلاكى !

ويحمل هذا البيت معنى حسنا مقبولا وهو عندى أرق وأعذب من قول الشيخ على الجارم مثلا

لو لم أخف حر الهوى وشبيه ، لجعلت بين جوانحى مثواك

فالشطر الاول من بيت أبى شادى القديم المطبوع حوى فى رشاقته كل معنى بيت الشيخ على الجارم الصناعى ، ولاشك أن الشاعر الوجدانى المطبوع الذى يصيب المعنى خالصاً فى شطر واحد خير من يوزعه متصنعاً فى حشو على شطرين !

ويختم أبو شادى خطابه اليها بهذا البيت المؤثر :

لاتبخل بالترب حولك ، ربما ... أحياه أن يغزو بطيب ثراك !

عبث ساحر ولا شك .. ولا تحسبها تبخل بالترب ولكن لن يحب أن يبقى بطيب ثراها .. ولكن سيحب أن تنفث فيه سحر إبداعك !

ياحياة الروح يا روح الحياة — يا أنى !

نعم ... يا أنى !

كم يعاني القلب في ذكرى مناه — غير لاه

هل رأيت مثل هذه الشكوى الثائرة بعد هدوء ، أو العاصفة بعد ثورة ؟!

وفي مثل هذا الخيال الجريء !

غار فأني غار وجد لن تزولا

وهموم وشجون لن تحولا

فيك صوب الليث من فاتن بك !

دعك من الابتداع والتفنن في النظم ، وقل لي أولا : ألا تسري إليك عند قراءتها لاتحة أسى عظيم ؟... ونريد أن نختم دراستنا لشعر شبابه بقطعة (وداع الشباب) ، وهي منظومة وجدانية رقيقة استهلها بأسفه على عهد شباب تقضى :

أسفي على عهد الشباب المنقضي ٥ بجلال نعمته وحق زفيري

وقد أشقاه وداعه لولا تعزية الضمير .

ودعته وحرمت آمال الهدى ٥ فشقيت إلا من لقاء ضميري

لقد شيع ماضيه ، يكلله الفخار ، ولكنه يحتمي أن يقابل تودد مقبله بفتور

ماض يكلله الفخار ومقبل ٥ أرعاه بين وداده ونفوري

وهو هو عابد الجمال وإن قسا عليه الجمال وجنت عليه عبادته له :

وأنا الشفيق على الجمال وإن قست ٥ وجنت عليه إرادة مصيري !

ولقد كنا نريد أن نفرغ معك الآن من دراسة غزل الشباب ، ولكنا نسينا أن نشير الى قصيدة حزينة قد تكون هي المثال الحي لغزل شبابه ، والحق أنا كنا نعمد إغفالها لأن مجرد تلاوتها قد ينتزع من منكبك دمعات فما بالك بدراستها !

هذه القصيدة هي (عرس مأتم) التي قال عنها أحد أصدقاء الشاعر وإنها نظمت

على مسمع ضعيف من موسيقي عرس حبيبته المغتصبة ، وكأن كل بيت منها جزء من فؤاده المنفطر » !

وسنعرض على القارىء بعض أبياتها ، قال في استهلاله المؤثر الحزين .

عذبة أنت في الخفاء وفي الجهـ ... ـر وفي الهجر يا أغاني الظلام
يلغي العاشق الأمين على العهـ ... ـد شقاء لقلبه المستهام
وارقأي أدمعي فحسبي عزاء ... أن يسر الحبيب من إيلامي !

الى أن يقول :

كيف أنسيت يا فراشي ولوعي ... هازئا من تقلب الايام !

وليقنع القارىء مني بهذا الآن ، فليس في طاقتي أن أنقل اليه القصيدة كلها ، فلا يطالبني بدراستها . . وليفعل ذلك هو إذا شاء فيرجع اليها في ديوانه « زينب » ويحمل وحده أساها وشجاها !

(٥)

غزل الكهولة

قلنا ان كهولة ابي شادي الغزلية هي أمتع أطوار شعره ، وإن يكن كله صادقا ، حيث هدأت ثورة شبابه الحزينة وعاد اليه إدراك الحياة . وكان يندمل جرح فؤاده . . لا . . فانه لم يندمل تماماً ، وإن جاز لنا تشبيه على يناسب أبا شادي الطبيب فلنقل إنها ضمادات تمنع النزف مؤقتا . . ولكن أثر الجرح مازال يؤلم الجريح ان أثارته الذكرى !

واطمأن الشاعر الى هذه الضمادات المؤقته ، وعلم أن الأمر قد قضي ، وتمت نكبته في غرامه ، وليس يجدي فيها نقض ولا إبرام !

فهلا أخذه من حبها سلوان ! . . . لا ، فمازال الحنين يعود به إليها ، ولكن عبادته لجمالها تحولت الى عبادة مطلقة للجمال العام ، وهو يؤمن مع ذلك بوحدة الحب ، ويرى أن غزله العام في الحسان يذكره بغزله في حسنها ، أو على الأصح أنه يتمثلها في سواها وأن عبادته للجمال المطلق هي عبادة رمزية لجمالها هي . . ترى ذلك واضحا في قصيدته (الحسن الخالد) كما تحسها في قوله في (وحدة الحب) من قصيدته التي نشرتها « العصور » حديثاً :

مثل الجمال إذا خطرن لناظري ، مثلت فيهن الجمال إزائي!

وقد ذكرنا أن غزل أبي شادي في الكهولة نسامى أكثره إلى فنون أخرى ، ولم يكن يعالج الغزل إلا على أنه أنعام فنية تحمل إلى العاشقين معاني تسمو بهم عن شهوات المادة والحس .

ونستعرض طيلك من غزل الكهولة هذا نموذجاً ثلاثاً لعلها كل ما نحتاج :

١) غزل وجداني

٢) غزل وصفي

٣) غزل قصصي

ونبدؤها معاً الآن في إيجاز ، وهنالك صورة أخرى هي الغزل التصوفي ولكننا لانتعرض لها الآن. فلسنا نعدها من غزل هذا البحث وكله موجه للمرأة يشرح عواطف الرجل نحوها أو يصفها أو يروي قصصه معها . فلنبدأ بغزله الوجداني .

ونريد أن نستهل ذلك بقوله في قصيدته (أمتع الأنس) :

تنازلت طوعاً عن وعود بجنة ، لساعة صفو منك بالحب غالية !

أتراه يعني مايقول حقيقة . أتظنه يتنازل عن الجنة بساعة وصل منها !

وما الحور والولدان في معرض الهوى ، وأنت مثال الجنة المتناهيـــة !

والحق أنه بهذا الاستفهام الانكاري يقدم لنا معنى طريفاً وإن كان يزري بالحور والولدان ولا ير ذلك! ثم يصف الحبيبة ملتمساً معذراً لغلوه :

وفي كل لفظ خفة أو رشاقة ، تجدد من أحلامي المتغانية

حقاً ! . لقد كدنا نزري معك بالحور والولدان !

ولأبي شادي في مثل هذا المعنى أبيات جميلة بعنوان (جنوني) وهي إحدى غزلياته الكثيرة السائدة في ديوان (الشفق الباكي) ، وفيها يقول :

ومن لي سواها في القيامة شافعاً ، لدى الرب إن جلت لديه ذنوبي!

ثم يردف ذلك بتعليل بارع :

أقول: إلهي أنت تدري عبادتي ، لحسنك في حسن أحل فتوني

فكل ذنوبي جنب ذلك تمحى ، ومابذنوب الحب غير فتون !

فهو يعبد جلال الخالق في جمال المخلوق ، ويرى أن في ذلك شفاعة له يوم القيامة !

وهو يرى أيضا أن (جمال الكون طوع لحسنها) :

كأن جمال الكون طوع لحسنها ٭ وفى حسنها كل الجمال تناهى !

فان هى بانت أوحش الكون بعدها ٭ كأنا عدمنـــا فى الوجود إلها !

وفى البيت الثانى شعور عميق نظم على قبسه الشيخ على الجارم أيضا وان لم يأت بجديد فكل شعره الغزلى تقريبا مقتبس من (مسامرة اللبيب فى الغزل والنسيب) ولولا تلحينه والتغنى به لما كان له شأن :

فاذا وصلت فكل شىء باسم ٭ واذا هجرت فكل شىء باك

فترى أيهما الذى وفق الى ابراز شعوره فى معنى جميل قوى وفى تعبير رائع آسر؟ أذلك الذى يقول إنها إذا بانت خيمت الوحشة والكآبة كأن العالم فقد إلهه المدبر الحاكم الذى يخفف من عبئه وينظم حياته وسعادته ! أم الذى يقول إنها اذا وصلت استغرق « كل شىء » فى التبسم وانها ان هجرت بكى وناح ! هذا هو الفارق مابين الشعر المطبوع وشعر الصناعة الذى كل بهجته فى زينه الأجوف وبهرجه الكاذب .

ويرى أبو شادى ان فى هجرها فوق الوحشة والكآبة موتا له من الحسرة والأسى وهو يقول فى قصيدته (الوعد) :

غابت فمت بحسرة وهوى ٭ وكأن هذا الصد لى لحد !

ويشبه وعداً خالفته معه ببعث بعيد :

وظللت أذكر وعدها فاذا ٭ بالوعد مثل البعث لا يبدو !

هذا غزل الوجدان ، أما غزل الكهولة الوصفى فأمثلته فى شعر أبى شادى كثيرة ولعل من أروعها قوله يصف غانية نزلت إلى البحر تستحم فى قصيدته (سلمى استفان) :

تتســـابق الأمواج فى ٭ تقبيلها قبـــل الحنان !

وهو يحسب كل شىء فى العالم يود لو استمتع بتقبيلها حتى الأمواج يرى أنها لاتقنع بالقبلات فتعانقها وتحتضنها :

وعناقهـــا طوراً برفـ ٭ ـق ثم آنا فى احتضـــان !

ويقول فى غادة ترشف (الكتيل) .

رشفت من الكتيل حلو شفاهها ٭ فأعارت الكتيل طعم شفاها

وأنّ من هتم الشفاه!

بالحظ قبل الثغر يقبل حسنها ٭ فيريق في أثر الثكول مدامه!

وهو موقف يتابع الرمز إلى الكأس أولاً .. فتلاقى أشعة الخمر بالأضواء وبريق الكأس .. فهل تقبل بالحظ قبل الرشف بالشفاه؟!

ويعيد أبو شادي في وصف الحسناء وقد بدت وبثرها الفتية متمثلة في قصيدته (بين الدرب):

بدت والفتية في دعتي ٭ عسى تعبر عن غرامي!

فقلت لها أنا الأولى بثي ٭ دعاك الله عن ذاك غرامي!

أترى ما يثير انشغال الفتية في نفسه؟!

وله في وصف (وداعة البراءة) الحسناء متطلعة بعصرية الروح جهة المطلع:

من علم الحسن الدلال الذي ٭ يغلب الأيام عن حقوق الأنام؟!

ومنها:

ألفت ساقيك بلا مرجب ٭ يا حسن ساقيك ولب يرام!

هلا لبست طهوراً لنا ٭ فكلنا بحمل عبء الغرام!

أجل! أجل!

ويقول الحسناء الفقيرة في قصيدته (الأيرة الصغار):

عسلام وجئتنا زائرة ٭ وليس لحسنك حسرة!

أيشكو الفقر عنكم ٭ وعلى الأيام من نظرة!

تشكو الفقر كسائر البشر! وما كان الحب شفيع فقر، وإن شفع للمحبين يوم الحشر! وأما الغزل القصصي فأمثلته كثيرة مبثوثة في شعر أبي شادي! ويستقصر منه على دراسة (ليلة صيف) عندما اجتمع من يهوى في خلوة ليلة مقمرة في فصل الصيف وقد خلت له أنفية حسبما تواخت أن يكون توقيعها على وقع قلبه المضطرب:

خف على وقع قلبي أي أغنية ٭ أهدت إلى الأمل البسام ريعانا!

ويستزيدها غناءً على العود فهي طب القلب إن قتلته نشوة الطرب:

غني على العود يا حسنى ويا قمري ٭ فأنت طب له إن مات سكرانا!

وهو يحسب العود مشغوفاً بتحيتها فيسابق صوتها توقيعه :

تسابق الصوت أوتار مرنحة ٥ والقلب غيران يحتى منه غيرانا !

والقلب يغار من حنو العود ومن تسابقه إلى تحيتها :

قبلته موضعاً من فؤاده ٥ وبللت بدموع منه أشجانا !

كأنما روعت من ناره فبكت ٥ والظلم يؤلم منقى الناس أحيانا !

فلقد أشفقت على فؤاده فقبلت موضعاً اختلج فيه وبللته بدموعها كأنما راعتها حرقته ! ولم لا تفعل ! ألا يشجي الظلم حتى الناس أحياناً !

***

لقد تشعب بنا مجال القول ، وأظننا لا نفرغ قريباً إن أردنا أن نمرس على هذه الطريقة نماذج من شعر أبي شادي الغزلي فما بالك به كله !

وكنت أحسب أنني أستطيع أن أدرس معك بعض غزلياته المختارة مثل (العليل المنفى) و (بعد الفراق) و (شعر الحب) و (بروحي) و (قبلة) و (تساهلين) و (نماذج الشعراء) و (الشك) و (الحسن الخاتل) وغيرها ولكنني لا أدري ماذا أذكر وماذا أترك . . . فليتبع القارىء بما ذكرنا من نماذج ، ولننتقل إلى الدراسة العامة في إيجاز كلي مراعاة للمقام .

(٦)

غزل الطبع وغزل الصناعة — أثر الغزل في شعر أبي شادي

بعض الشعراء من مهرة الصناع يتصيد المعاني كما يتصيدون الألفاظ ، ويرصفونها رصفا منسقاً أو منقطعا في غير مبالاة أو مراعاة على أكثر تقدير لحلاوة الألفاظ وجرسها وما كان الشعر صناعة يلهو بها العاطلون والأدعياء المتكاسلون ! ولا فائدة لنا مطلقاً من الغزل الصناعي ولا من الاقتصار على الغزل الحسي ، وخصوصا ذلك الذي تولده الغريزة الحيوانية فيكاد يتصل بالهمجية ويهجر روحانية الشعر الجميلة التي تصل الشاعر المعاني السامية .

وإن صح أن أبا شادي لا ينظم إلا عن دافع وجداني قوي حتى في أي ضرب من ضروب الشعر ، وإن صح أن هذا هو الواقع حتى في شعره الاجتماعي والسياسي ، فهو

أحق ما يكون على الأخص فى شعره الغزلى الذى لا يمكن أن تشوبه شائبة الصناعة ، ولعل أصدق ما يوصف به هذا الغزل انه وحي القلب الى القلب، ورسول العاطفة الى العاطفة فلا مقارنة بينه وبين شعراء غزل المذكر وواضعى الأغانى الصناعية وأمثال هذا العبث الذى ابتليتنا به فى شعر أكثر شعرائنا المعاصرين سواء كانوا من المحافظين الرجعيين أو من المتصنعين زوراً بالتجديد .

ويستمد أبو شادى من روح الغزل هذه فى مواقف رواياته الغنائية (أوبراته) حتى أنك لتلمس وأنت تقرؤها أنها حقائق واقعة، وما ذلك إلا لأن مصادر استمداده الغزلية حية فى نفسه ، فهو شاعر الحياة بحق .

(٧)

خلاصة

ويمكننا أن نخرج الآن من هذه الدراسة المطولة بما يأتى :

(١) ان غزل أبى شادى هو أشبه بالهام حار الى النفوس الحساسة الرقيقة .

(٢) انه يصور لك فى رقة جمال المرأة ، ويصف ميلاقيه الرجل فى هواها بقدر ما يكون بينهما فى كياسة تعبير لن تنفر منها بل تجتذبك اجتذابا .

(٣) ان معانى غزله تسمو بالنفس الى ماوراء العالم المادى حيث السعادة الروحية تزرى بالبهيمية والحيوانية المقوتة .

(٤) يصل غزله بين الجمال الانسانى والجمال العالمى فى فلسفة مقبولة تستوعبها النفس فى لذة واستمتاع عظيم

*
* *

وهكذا كان غزل أبى شادى متمشياً مع طبيعته ومواهبه من جهة ومع ثقافة العصر من جهة ثانية ، وبذلك صار غنما للأدب العصرى عامة وللأدب المصرى خاصة، ولم يكن مجرد عبث ولهو ضائع ؟

على محمد البحراوى